نبذات من عظات

صوت صارخ

٤٥

القمص يوسف أسعد

نبذات من عظات

٤٥

صوت صارخ

القمص يوسف أسعد

اصدار أبناء القمص يوسف أسعد

٢٠٠١ م

الكتـــــاب: صـــوت صـــارخ
(عظة باجتـمـاع الشبـاب الجامعى والموظفين
بكنيسة السيدة العذراء بالعمرانية ١٩٨٦/١/١٧)
المـــؤلـــف: القمص يوسف أسعد
إصـــــــدار: أبناء القمص يوسف أسعد
ص. ب. ٢١٢ الجيزة
الطبـــعـــة: الأولى: سبتمبر ٢٠٠١
الكمـــبـــوتر: F.Y. Center ت: ٥٨٢٤٤٨٢
الغـــــلاف: چى. سى. سنتر ـ المهندسين
المطبـــعـــة: دار العالم العربى ـ الظاهر ـ القاهرة
رقـم الإيـداع: ٢٠٠١/ ١٤٤٨٣

صوت صارخ

«وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ سَلْطَنَةِ طِيبَارِيُوسَ قَيْصَرَ إِذْ كَانَ بِيلاَطُسُ الْبُنْطِيُّ وَالِياً عَلَى الْيَهُودِيَّةِ وَهِيرُودُسُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى الْجَلِيلِ وَفِيلُبُّسُ أَخُوهُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى إِيطُورِيَّةَ وَكُورَةِ تَرَاخُونِيتِسَ وَلِيسَانِيُوسُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى الأَبَلِيَّةِ فِي أَيَّامِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ حَنَّانَ وَقَيَافَا كَانَتْ كَلِمَةُ اللهِ عَلَى يُوحَنَّا بْنِ زَكَرِيَّا فِي الْبَرِّيَّةِ. فَجَاءَ إِلَى جَمِيعِ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنِّ يَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي سِفْرِ أَقْوَالِ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً. كُلُّ وَادٍ يَمْتَلِئُ وَكُلُّ جَبَلٍ وَأَكَمَةٍ يَنْخَفِضُ وَتَصِيرُ الْمُعْوَجَّاتُ مُسْتَقِيمَةً وَالشِّعَابُ طُرُقًا سَهْلَةً. وَيُبْصِرُ كُلُّ بَشَرٍ خَلاَصَ اللهِ

وَكَانَ يَقُولُ لِلْجُمُوعِ الَّذِينَ خَرَجُوا لِيَعْتَمِدُوا مِنْهُ يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي. فَاصْنَعُوا أَثْمَاراً تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلاَ تَبْتَدِئُوا تَقُولُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبٌ. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ اللهَ

قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذه الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْرَاهِيمَ. وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ. فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. وَسَأَلَهُ الْجُمُوعُ قَائِلِينَ فَمَاذَا نَفْعَلُ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ وَمَنْ لَهُ طَعَامٌ فَلْيَفْعَلْ هكَذَا. وَجَاءَ عَشَّارُونَ أَيْضًا لِيَعْتَمِدُوا فَقَالُوا لَهُ يَا مُعَلِّمُ مَاذَا نَفْعَلُ. فَقَالَ لَهُمْ لاَ تَسْتَوْفُوا أَكْثَرَ مِمَّا فُرِضَ لَكُمْ. وَسَأَلَهُ جُنْدِيُّونَ أَيْضًا قَائِلِينَ وَمَاذَا نَفْعَلُ نَحْنُ. فَقَالَ لَهُمْ لاَ تَظْلِمُوا أَحَدًا وَلاَ تَشُوا بِأَحَدٍ وَاكْتَفُوا بِعَلاَئِفِكُمْ

وَإِذْ كَانَ الشَّعْبُ يَنْتَظِرُ وَالْجَمِيعُ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ عَنْ يُوحَنَّا لَعَلَّهُ الْمَسِيحُ أَجَابَ يُوحَنَّا الْجَمِيعَ قَائِلاً أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ وَلكِنْ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ وَيَجْمَعُ الْقَمْحَ إِلَى مَخْزَنِهِ. وَأَمَّا التِّبْنُ فَيَحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ. وَبِأَشْيَاءَ أُخَرَ كَثِيرَةٍ كَانَ يَعِظُ الشَّعْبَ وَيُبَشِّرُهُمْ. أَمَّا هِيرُودُسُ رَئِيسُ الرُّبْعِ فَإِذْ تَوَبَّخَ مِنْهُ لِسَبَبِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ وَلِسَبَبِ جَمِيعِ الشُّرُورِ الَّتِي كَانَ هِيرُودُسُ يَفْعَلُهَا زَادَ هذَا أَيْضًا عَلَى الْجَمِيعِ أَنَّهُ حَبَسَ يُوحَنَّا فِي السِّجْنِ» (لو ٣: ١ ـ ٢٠).

صـوت صـارخ:

ما أجمل أن نتذكر شخصية يوحنا المعمدان كأحد الخدام الأمناء الذين كرزوا كرازة مقبولة أمام الله، هذا الخادم الذى تحدث عنه إشعياء النبى بصورة رمزية قائلاً عنه أنه «صَوْتُ صَارِخٍ» (إش ٤٠: ٣).

فلم يكن هذا الخادم سوى إنساناً جعل ذاته بوقاً لله فسُمع منه صوت الله، فلقد كان هذا القديس صوت الله الذى يصرخ «فى البرية» والبرية هنا أيضاً رمز.. معناه أن الصوت سيكون صوت وحيد، فالصوت فى البرية تسمعه وتسمع صداه، لأنه وحيد.

والبرية هنا المقصود بها هو العالم الذى عاصره ذلك الخادم، فلقد كان وسط جيل سواءً كانوا كهنة أم حكاماً أم شعباً كان هو الوحيد الصوت الصارخ.. لذلك قيل عنه فى البرية.

السُبل المستقيمة:

لقد كان مضمون وجوهر هذا الصوت فى الرمز الذى سمعناه

بواسطة إشعياء النبى فى العهد القديم: «أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ» (إش ٤٠ : ٣) فلقد كان جوهر صراخه أن يُعِد طريق الرب.

وأنتم تعلمون أن إعداد أى طريق يحتاج إلى مشقة.. إنه عمل متعب مضنى يجد الإنسان نفسه أمام أكوام من الأحجار والتراب والرمال وأحجام من براميل القار، ويجد نفسه أمام مشاكل فى اعتراض المرافق لإعداد الطريق، فهو ليس عملاً سهلاً..

وهكذا فجوهر خدمة يوحنا المعمدان لم تكن مجرد إعداد الطريق ولكن صناعة سبل الله باستقامة «اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً»، فهناك الكثيرين يمكن أن يصنعوا سُبل الله ولكن باعوجاج وبشهوات بشرية ورغبات إنسانية بحتة، يحاولون فيها لا أن يصنعوا سبيل الرب المستقيم بل يهمهم ذواتهم أكثر من الاستقامة، أما يوحنا فهو الخادم الذى نادى بصناعة سبيل مستقيم لله..

فهو لم يعرف أسلوب المجاملة مع السامعين فخرج إلى الجموع وقال لهم يا أولاد الأفاعى، فلقد رآهم يهلكون بعضهم بعضاً فرمز إليهم بالأفاعى التى تقبل فى فمها من الذكر سائل الحياة ثم تطبق

بفمها بكل قوتها على الذكر فتقتله، فهو يمنحها سائل الحياة فتقتله.. ثم يدخل هذا السائل إلى أحشائها ليصنع أجنة هذه التى لا تجد مكاناً يسمح بخروجها من بطن الأم، فتجدهم ينهشون بطنها.. وذلك بعد أن احتوتهم وغذتهم وأعطتهم من ذاتها حتى تَكَوَّنوا كأفراد جدد.. ليخرجوا بعد ذلك ليعيدوا دورة الهلاك..

ولما وجدهم فى حياتهم يماثلون هؤلاء الأفاعى لم يُجامل أو يختار ألفاظاً أقل خشونة أو تشبيهات أقل جرحاً لهم، ولكن أسماهم كما هم يا أولاد الأفاعى ووضعهم أمام الحقيقة.. فالغضب الإلهى آتى.. فإن كان غضب إنسان قتل فى ليلة مائة وأربعة وأربعون ألفاً من الأطفال البتوليين الأبكار الذين لم يقترفوا إثماً، وهذا ثمر الغضب الإنسانى، فما هو تقييمكم لغضب الله؟

والحقيقة إن تقييم الخادم لكلمة غضب الله تجعله بوقاً صارخاً كما كان يونان فى وسط أهل نينوى.. وهو أنه بعد أربعين يوماً تنقلب المدينة، وكان لصراخه قوة خلاصية فى تكميل عمل الله.. وهو توبة المخدومين.. اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة.

ثمـــار:

فعندما أحب يوحنا المعمدان أن يمثل الغضب الآتى وجدناه يختار الفأس الموضوعة على أصل الشجرة، وقال أن الفأس قد وضِعَت على أصل الشجرة وأن كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ـ فهو لم يقل ثمراً فقط بل يجب أن تصنع ثمراً جيداً ـ تقطع وتلقى فى النار.. والنار كما ذكر هو «نَارٍ لاَ تُطْفَأُ» فثمر التوبة دائماً ثمراً جيداً نجد فيه أعذب المذاق، فكما أن لحن الرجوع هو أجمل الألحان، فإن ثمر التوبة ألذ الأثمار مذاقة فى فم الله.

ولهذا فإن هذا الخادم الأمين كان يعرف معنى الغضب الآتى، ويعرف أيضاً أنه لا يوقف غضب الله إلا التقوى والثمر الجيد الذى فى كل شجرة.

والحقيقة أن الفأس موضوعة على أصل الشجرة، فالغضب الإلهى إن كان عاماً للكل، فهو خاصاً فى قدرته على التمييز بين المثمر الجيد وغير المثمر.. لذلك أعتقد أنه لا يوجد خادم أمين عرف المسيح إلا ويكون صراخه فى وسط أولاده توبوا لأنه قد اقترب منكم

ملكوت الله.. فالخادم الأمين هو الذى يدرك أن فرح السماء هو بالخاطئ التائب، وغضب الله لا يكون إلا بالخاطئ غير التائب حتى وإن كان واحداً.

وفى العهد القديم سمعنا عن خاطئ واحد أخطأ فى سرقة بعد أن إشتهى وكانت النتيجة كسرة وانهزام شعب بأكمله.. لهذا فإن يوحنا الخادم الأمين كان ينادى عن منهج خلاص يهدف إلى توبة الإنسان.

أولاد إبراهيم:

والحقيقة أن معلمنا يوحنا هنا كشف اليهود الذين كانوا يعتمدوا على أبيهم إبراهيم كشفيع.. فالله يحاسب النفس بحسب عملها هى وليس على حسب عمل أبيها، فليس لأن إبراهيم أبوك فيجعلك هذا تتكل على شفاعته وصلواته، فصلوات إبراهيم لا تنفع أولاده.. وهذا لأن الرب يحتاج أولاً للقلب الذى يقدم له ذبيحة حية، فإن لم يجد ذبائح حية فهو قادر أن يخلق من الحجارة أولاد أحياء.

فمن الأمور السابقة يعطينى الرب فكرة عن فكر يوحنا المعمدان فى خدمته، فالله عندما لا يجد ثمراً للتوبة يقطع، ولكن بعدما يقطع سنجد المعجزة من الغير متوقع أن تحدث، فالحجارة الصماء تصير أيادى حنائن وقلوب لحمية كارزة بملكوت الله، فعندما يكون الأبناء غير تائبين ويأخذوا أكثر من فرصة، فسنجد أن الغرباء يأتوا لكى يأخذوا مكان الأبناء، بينما الأبناء يكون مكانهم النار التى لا تطفأ.

منهج إجتماعى:

يا أحبائى إن معلمنا يوحنا كخادم فى كرازته كان له منهجاً إجتماعياً ممتلئاً رحمة «مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ» (لو ٣: ١١)، فإننى أعتقد أنه لا يوجد خادم أمين ينزل فى خدمته ويرى احتياج الناس إلا ويعود شاعراً بأن الذى عنده فيه الكفاف بالنسبة له، ليبحث عن الذى ليس له، فإن بعض الناس أحياناً يصل إلى درجة من الإحساس بالكفاية وذلك عندما يجد نفسه فى بحبوحة من العيش والراحة، وقد يبحث بعد هذا على آخرين متعبين.

ولكن الخادم الأمين فى هذا المضمار تجده مهما وصل فى

حياته إلى إمكانيات الراحة فلن يخرج من فكره ولا من أمام عينيه النفوس المُتعبة فى المعيشة.

لهذا عندما تحدث المعمدان وجدناه يأخذ أكثر من مثال ونموذج فى هذا الأمر، فالعشارين لا يستوفوا أكثر مما خُصص لهم، والجنود لا يظلموا أحداً ولا يصنعوا ذنوباً بالآخرين ويكتفوا بعلائفهم أى على قدر كفافهم واحتياجهم..

فمن هذا يتضح لنا أن هذا الخادم كان يعطى دواءً حقيقياً للنفوس التى طالبها بثمار التوبة، فالذى يتوب وبطنه جائعة فماذا يفعل إن لم يجد أمامه خبزاً..! والذى يتوب إن لم يجد أمامه ثوباً يلبسه فماذا يلبس..! والذى أيضاً يتوب كيف تُقبل توبته وهو ظالم لغيره فى المال أو السمعة أو الكرامة..؟!

لست المسيح:

والقديس يوحنا المعمدان أيضاً هنا فى كرازته قال عن نفسه أنه ليس هو المسيح، فلقد ظن البعض أنه المسيح.. فأحياناً يصل الخادم فى عيون أولاده إلى درجة التقديس وينظروا إليه على أنه المسيح،

وهذا يحدث فى كل جيل.. ولكن الخادم الأمين يوحنا المعمدان قال لهم لست المسيح، فأنا مجرد مُعمِد بالماء، ولكن المسيح هو الذى يُعمِد بالماء والروح بالنار.

والنار هنا علامة.. فالنار والماء لا يتفقان سوياً، فالماء يطفئ النار، وهكذا فإن ربنا يسوع يُعمد بالألفة والمصالحة تلك التى تجعل الطبيعة الإنسانية غير معوّقة لعمل الطبيعة الإلهية فى الإنسان، فيحمل الإنسان البشرى روح الله وطبيعة الله دون أن تعطل عمل الله فيه أو تغير من طبيعة الجسد، فأصبح الماء والنار فى معمودية السيد المسيح معناها معمودية المصالحة.. ألّف السمائيين مع الأرضيين.. ألّف النفس مع الجسد وجعل الإثنين واحداً.

وهنا نعرف أن يوحنا كان يعمد بمفهوم الماء القديم بينما الرب يسوع جمع فى كرازته القديم والجديد معاً.. الناموس والحرية.. العدل والرحمة معاً.. الأرض والسماء معاً..

فمعمودية المسيح قدمت للإنسان مصالحة بين كل شئ، فلم يصبح الجسد الذى نلبسه ضدنا ولا الروح مسيطرة متغطرسة، بل الروح تعطى الجسد، والجسد يعين الروح، فبواسطة الجسد أرفع

يدى وبواسطته لسانى يتهلل وشفتاى تسبح.. فالروح النشيطة تجعل الجسد روحانى والجسد الذى صار للمسيح يغذى الروح ولا يكسلها عن العمل الخلاصى، هذا هو عمل المسيح الذى شهد به يوحنا ولم يأخذ لنفسه مجد المسيح.

شهادة الحق:

هذا يا أحبائى صنعه يوحنا بأمانة فلم يكن نصيبه من الأرض سوى السجن، ووضعه فى غياهب وظُلمات الأرض.. صنع كرازته فى النور فكان جزاءه أن يحرم من النور فى ظلام السجن.

ولكن هذا الأمين الذى قادته أمانته ألا يجامل هيرودس فى الشر الذى صنعه بل كما يقول الكتاب: «فَإِذْ تَوَبَّخَ مِنْهُ لِسَبَبِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ وَلِسَبَبِ جَمِيعِ الشُّرُورِ الَّتِي كَانَ هِيرُودُسُ يَفْعَلُهَا» فهو لم يقل له الكلام بأسلوب منافق ولكن بتوبيخ يحمل إفاقة للإنسان المستغرق فى الخطية.

كان أميناً فى أن يكون صوت الله الصارخ فى البرية، فكانت المكافأة التى أخذها من الأرض أن يوضع فى السجن.

يا أحبائى هذا المشهد السريع من حياة يوحنا المعمدان لا ينتهى عند هذا الحد، فلو كان حياً فى السجن لكانت روحه الصارخة عملت عملاً أقوى.. لكن هناك أيادى قدمت رأسه على طبق لتنتهى قصة هذا الشاهد بالحق بهذا السيف.

ولكن مسكين من يظن أنه بهذا قضى على الحق.. فلقد خرج المسيح من بعد يوحنا ينادى أنا هو الطريق والحق ودخل القبر ولم يقوى الموت عليه بل قام الحق الذى يبرر الكل بجدارة، وإلى هذا اليوم لم ولن يموت الحق.

وصدقونى يا أحبائى إن أقوى شئ فى هذا الوجود لا يستطيع أن يقف أمام قوة الحق، فهذا النموذج من الخدام حاولت أن أقدم أيقونته لحضراتكم تاركاً روح الله ليرسم فى قلب كل منكم الأثر الروحى الذى تحتاجه نفوسكم لكى تتغير فتصير فينا من روح يوحنا هذا الخادم الأمين الذى إستحق أن يصير سابقاً وصابغاً لسيدنا يسوع المسيح.. «انْظُرُوا إِلَى نِهَايَةِ سِيرَتِهِمْ فَتَمَثَّلُوا بِإِيمَانِهِمْ» (عب ١٣: ٧).

صدر من هذه السلسلة

١ ـ الأجـــــــــــــر

٢ ـ أنـــا هـــو الـــطـــريـــق

٣ ـ الدرهم المفـــقـــــود

٤ ـ الـوفـــــــاء لـلآبـاء

٥ ـ خصوم الصوم وأصدقائه

٦ ـ تكريم الأمـــومـــــة

٧ ـ الـقـــيـــامـــــة

٨ ـ فـــى كـــل الأيـــام

٩ ـ ســمـــاء الســمـــوات

١٠ ـ خصوم الإنسان المسيحى الأربعة

١١ ـ خمسة نصائح للعام الجديد

١٢ ـ عـــرس قـــانا الجليل

١٣ ـ أنا مـــعكم كل الأيام

١٤ ـ كيف نبدأ عاماً جديداً

١٥ ـ كيف نحتفل بأعيادنا روحياً

١٦ ـ كـــيـف أعـــمـل

١٧ ـ محاسبة النفس فى نهاية العام

١٨ ـ البـدايات فى حـيـاتنا

١٩ ـ مـاذا يعطلنا عن التـوبة

٢٠ ـ الـصـــــــوم

٢١ ـ سـعـادة الشـبـعـان

٢٢ ـ الإيمـــــــــان

٢٣ ـ ســـــلاح الإيمـان

٢٤ ـ التـــواضع أمـــام الرب

٢٥ـ لا تضطرب قلوبكم

٢٦ـ الزمن

٢٧ـ العطاء

٢٨ـ الله ملجأ لنا

٢٩ـ الإنسان الجديد

٣٠ـ الصعود والخلوة

٣١ـ كيف أرضى الرب

٣٢ـ ثلاثة أمور تساعد على النقاوة

٣٣ـ عثرة الشك

٣٤ـ النمل

٣٥ـ الوبار

٣٦ـ الأشياء الصغيرة

٣٧ـ من لذات التوبة

٣٨ـ القديسون

٣٩ـ البركة

٤٠ـ الله يختار

٤١ـ لا تقبل خبراً كاذباً

٤٢ـ نحو علاقات أسرية ناجحة

٤٣ـ الحياة الروحية السليمة

٤٤ـ دعوة للسماء

٤٥ـ صوت صارخ

فم الصديق ينبوع حياة

(أم ١٠: ١١)

هناك أيادى قدمت رأسه على طبق لتنتهى قصة هذا الشاهد بالحق بهذا السيف. ولكن مسكين من يظن أنه بهذا قضى على الحق.. فلقد خرج المسيح من بعد يوحنا ينادى أنا هو الطريق والحق ودخل القبر ولم يقوى الموت عليه بل قام الحق الذى يبرر الكل بجدارة، والى هذا اليوم لم ولن يموت الحق.